انشقاق عربي كبير برسم الحلول غير المؤكدة، كما حصل في السبعينات بين مؤيد ورافض، وكأن المسألة قرار عربي بالايجاب، او النفي. هذا الموقف الوسطي نفسه يحمل، مرة أخرى، بذور التناقض؛ فعمّان التي بذلت الجهود في سبيل الحد من الصراعات داخل الاسرة العربية، تطلب منها الاعتراف بأن ليس في يدها أي وسيلة ضغط فعلية لتقريب الثنائي السوري ـ المصري، فإنْ وجد هذا الثنائي وسيلة للتقارب، رأى الاردن بارقة أمل، وانْ لم يجد، فالقلق يبقى خبز الاردنيين اليومي.

الاختراق المصري وحدوده

لقد تعرّض دور مصر في النزاع العربي ـ الاسرائيلي لقيود عديدة ومتناقضة، حيث تذبذب تصوّر القاهرة لدورها الاقليمي بين مستلزمات الرومانسية القومية، وتلك التي تتطلبها الواقعية المحض. ولقد أدى اتّباع أي من النقيضين الى خلق مضاعفات في النزاع، فكان موقف عبدالناصر، العام ١٩٦٧، وموقف السادات، العام ١٩٧٧، يمثّلان غاية التطرف من الناحيتين، بينما اجتهد مبارك، منذ تسلّمه زمام الحكم، لكي يتمسك بموقع في مركز التوسط الهندسي بين سلفيه. لكن التساؤل عن سبب تبنّي مصر لدورها الجديد في النزاع العربي ـ الاسرائيلي، والكيفية التي تتابع، من طريقها، ممارسة هذا الدور يحتاجان الى بعض الاستطراد.

اللافت، هنا، الرغبة العميقة لدى معظم العرب في سرعة عودة مصر الى الصف العربي؛ ويتميز هؤلاء بتوقعات كبيرة، صريحة أم ضمنية، ترى ان تلك العودة تمثل «علاجاً» قادراً على رأب جميع الصدوع.

بيد ان مصر التي سوف تعود هي بلد لم يستطع، حتى الآن، ان يستعيد قدرته التي تآكلت خلال السنوات السابقة، وهي بلد فقير في موارده، مزدحم بسكانه، يحمل عبء ديون خارجية ثقيلة، ويعتمد على الآخرين في الحصول على اكثر من نصف احتياجاته من الغذاء، هذه الحقائق القائمة اضحت جزءاً لا يتجزأ من نفسية صانع القرار المصري، بحيث اضطر الى ان يكون أكثر «واقعية» في احلامه، وأكثر «عقلانية» في سلوكه.

من هنا، لن تتوفر لدى مصر القدرة، أو الرغبة، او الاثنان معاً، في قيادة العالم العربي في مواجهة جديدة مع اسرائيل في الحاضر او في المستقبل المنظور؛ فالالتزامات المترتبة على اتفاقيتي كامب ديفيد، ومشكلات مصر الاقتصادية، تستبعد، اساساً، الالتجاء الى مثل هذا الخيار. وللتأكد من ذلك، فان صانع القرار المصري قد تخلّى، منذ زمن، عن الوهم الذي كان مقتنعاً به يوماً، بأن اسرائيل لديها رغبة حقيقية في توطيد السلام، ولكن فقدانه للثقة في اسرائيل لا ينتقل، بصورة تلقائية، الى اتخاذ طريق الحرب مع اسرائيل. وقد يتوقع العرب، مع ذلك، ان مصر سوف تقودهم، على نحو ما، الى مواجهة دبلوماسية مع اسرائيل والولايات المتحدة لانتزاع ما يمكن انتزاعه من حقوق الفلسطينيين ومن الارض العربية المحتلة، وان تُطلق «استراتيجية للاحتواء» مهمّتها محاصرة خطط السيادة الاسرائيلية في الشرق الاوسط. ويأخذ هذا التفهّم في الاعتبار الحكم على التزامات اسرائيل طبقاً للمعاهدة والتزامها «الاخلاقي» تجاه الفلسطينيين؛ كما انه يأخذ بعين الاعتبار، أيضاً، حماية المصالح العربية. ويمثّل هذا الاسلوب، في ممارسة صانع القرار المصري، الامل في المحافظة على موقعه المتوسط بين رومانسية القومية العربية التي جسّدها عبدالناصر، وأسلوب المواءمة العملية الذي كان يتمسّك به السادات.

هذا الدور المصري الهامّ الذي محضه معظم العرب الدعم، كيف يمكن ان ينعكس فلسطينياً ؟